

ملحمة جلجامش،^[1] قصيدة ملحمة من آداب بلاد الرافدين القديمة وتُعدّ أقدم الأعمال الأدبية العظيمة ، يبدأ التاريخ الأدبي لملحمة جلجامش بخمس قصائد سومرية عن (بل كاميش / كلكاميش)، ملك الوركاء، يعود تاريخ الملحمة إلى عصر سلالة أور الثالثة. استُخدمت هذه القصص المتفرقة فيما بعد كمصدر مرجعي لقصيدة ملحمة مجمعة في اللغة الأكديّة. تحمل أقدم نسخة متبقية من تلك الملحمة المسمّاة اسم «البابلي القديم»، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لم يتبقّ من تلك القصيدة سوى بضعة ألواح طينية. أما النسخة التالية «القياسية» التي جمعها سين-لقي-ونيني يعود تاريخها إلى ما بين القرنين الثالث عشر والعاشر قبل الميلاد وتحمل الاسم (هو الذي رأى)،

تقريباً تمّ استرجاع ثلثي هذه النسخة ذات الألواح الطينية الاثني عشر. اكتُشفت بعض النسخ الأفضل حالاً في أنقاض مكتبة آشور بانيبال الملكية من القرن السابع قبل الميلاد.

يدور القسم الأول من القصة عن جلجامش، ملك الوركاء، وإنيكدو، وهو رجل جامع خلقته الآلهة لوضع حدّ لطغيان جلجامش على شعب الوركاء. بعد أن يتأنس إنيكدو عبر إقامته علاقة جنسية مع مومس، ينطلق إلى مملكة الوركاء، حيث يطلب تحديّ جلجامش لاختبار مقدار قوته. يفوز جلجامش في التحدي، ومع ذلك، يصيح الرجلان صديقين، وينطلقان معاً في رحلة تدوم لسنة أيام إلى غابة الأرز السحرية، حيث يخططان لقتل الحارس، خومبابا الرهيب، وقطع شجرة الأرز المقدسة.^[2] تُرسل الإلهة عشتار ثور الجنة لعقاب جلجامش على رفضها التقرب منه. يقتل جلجامش وإنيكدو ثور الجنة، وعلى إثر ذلك يتخذ الآلهة قرارهم بالحكم على إنكيدو بالموت، ويقتلونه.

في الجزء الثاني من الملحمة، يدفع الأسي على موت إنكيدو بجلجامش إلى القيام برحلة طويلة محفوفة بالمخاطر لاكتشاف سرّ الحياة الأبدية. في نهاية المطاف يكتشف أن «الحياة التي تسعى في إثرها لن تنالها أبداً. لأن الآلهة عند خلقها البشر، جعلت الموت من نصيبهم، واستأثرت بالخلود نصيباً لها وحدها.

على أيّ حال، فقد طارت شهرة جلجامش في الأفاق، وعمرت طويلاً بعد موته، بسبب مشاريعه العمرانية العظيمة، ونقله لنصيحة أسدتها له سيدوري، وما أخبره إياه الرجل الخالد أوتنابيشتم عن الطوفان العظيم؛ ولقيت قصة الملحمة اهتماماً متزايداً وترجمت إلى العديد من اللغات وتظهر في العديد من الأعمال الأدبية الشهيرة.

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش، ملك أورك - الوركاء الذي كانت والدته إلهة ووالده بشرا فانيا ولهذا قيل بأن ثلثيه إله وثلث الباقي بشر. وبسبب الجزء الفاني منه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالداً. تجعل الملحمة جلجامش ملكاً غير محبوب من قبل سكان أورك؛ حيث تنسب له ممارسات سيئة منها ممارسة تسخير الناس في بناء سور ضخم حول أورك العظيمة.

ابتهل سكان أورك للآلهة بأن تجد لهم مخرجا من ظلم جلجامش فاستجابت الآلهة وقامت إحدى الإلهات، واسمها أرورو، بخلق رجل من الطين وحي كان الشعر الكثيف يغطي جسده ويعيش في البرية يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات؛ أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش. ويرى بعض المحللين أن هناك رموزا إلى الصراع بين المدنية وحياة المدن الذي بدأ السومريون بالتعود عليه تدريجيا بعد أن غادروا حياة البساطة والزراعة المتمثلة في شخصية أنكيدو.

كان أنكيديو يخلص الحيوانات من مصيدة الصيادين الذين كانوا يقتاتون على الصيد، فقام الصيادون برفع شكواهم إلى الملك جلجامش؛ فأمر إحدى خادمتي المعبد بالذهاب ومحاولة إغراء أنكيديو ليمارس الجنس معها؛ وبهذا تبتعد الحيوانات عن مصاحبة أنكيديو ويصبح أنكيديو مروضاً ومدنياً. حالف النجاح خطة الملك جلجامش، وبدأت خادمة المعبد - وكان اسمها شمخات، وتعمل خادمة في معبد الآلهة عشتار - بتعليم أنكيديو الحياة المدنية؛ ككيفية الأكل واللبس وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخبار أنكيديو عن قوة جلجامش وكيف أنه يدخل بالعروضات قبل أزواجهن. ولما عرف أنكيديو بهذا قرر أن يتحدى جلجامش في مصارعة ليجبره على ترك تلك العادة. يتصارع الاثنان بشراسة؛ فهما متقاربان في القوة، ولكن الغلبة في النهاية كانت لجلجامش، حيث اعترف أنكيديو بقوة جلجامش، وبعد هذه الحادثة يصبح الاثنان صديقين حميمين.

يحاول جلجامش دائماً القيام بأعمال عظيمة ليبقى اسمه خالداً؛ فيقرر في يوم من الأيام الذهاب إلى غابة من أشجار الأرز؛ فيقطع جميع أشجارها، وليحقق هذا عليه القضاء على حارس الغابة، وهو مخلوق ضخم وقبيح اسمه خومبابا. ومن الجدير بالذكر أن غابة الأرز كان المكان الذي تعيش فيه الآلهة ويعتقد أن المكان المقصود هو غابات أرز لبنان.

ملحمة كلكاميش

تبدأ الملحمة في وصف بطل الرواية جلجامش فتذكر خبرته وحكمته بخفايا الأمور واخبار أزمان ما قبل الطوفان ، وانه سافر أسفارا بعيدة « أحلت به الضنى والتعب فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وحبره » وانه بنى أسوار الوركاء ومعبدها المقدس « اي - أنا » ، وهو عمل لم يضارعه فيه أحد من الملوك .

« وكان جلجامش على أتم ما يكون من الخلق وكمال الصورة فقد حباه شمش السماوي بالحسن ، وخصه الاله « أدد » بالبطولة ، طوله أحد عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار ، ثلثاه اله وثلثه الباقي من مادة البشر » . ولكن البطل جلجامش كان يضطهد رعيته في الوركاء فلم « يترك ابنا طليفا لآبيه ، ولم يدع عذراء طليقة لحبيبا والا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل » . فاستغاث الناس بالالهة ، واستمع الاله « أنو » لشكواهم فدعا الالهة الخالقة « اورورو » وقال لها : « يا اورورو انت التي خلقت هذا الرجل بأمر انليل ، فاخلقي الآن غريما له يضارعه في قوة العزم وليكونا في صراع دائم حتى تنال « اوروك » السلام والراحة . فأمثلت « اورورو » لأمر أنو وغسلت يديها وتناولت قبضة من الطين ورمتها في البرية ، فخلق منها « انكيدو » الصنديد ، نسل الاله « تنورتا » القوي . ونشأ انكيدو متوحشا ماردا يجلل الشعر جسمه ، وشعر رأسه كشعر المرأة . . . لا يعرف الناس ولا الصمران ، يرعى الكلا مع الظباء ويرتاد الماء مع وحوش البرية » .

وحدث يوما أن صيادا رآه عند مورد الماء فدعر ، وقد قطع انكيدو
شباك صيده وجعل الحيوانات تفر منه . قص الصياد على أبيه ما شاهده ،
فنصحه أبوه أن يذهب الى الوركاء حيث يحكم البطل جلجامش ويخبره
بأمر الوحش الذي رآه ويبين له الطريقة التي ينبغي لجلجامش أن يعمل
بموجبها في احضار انكيدو الى الوركاء بأن يصطحب معه بنيا مومسا .
وبعد أن قص الصياد على جلجامش خبر انكيدو قال له جلجامش :
« انطلق أيها الصياد واصطحب معك بنيا مومسا(*) ، وحينما يأتي الى مورد
الماء لسقي الحيوان دعها تخلع ثيابها وتكشف عن مفاتن جسمها ، فاذا
ما رآها اجذب اليها ، وعندئذ ستكره حيواناته التي ربيت معه في
البرية » . فعمل الصياد وفق ذلك وسار مصطحبا معه البغي حتى وصلا
الى المواضع التي يتردد عليها « انكيدو » ، ولما شاهده الصياد قال للبغي :
« هذا هو أيتها البغي فاكشفي عن نهديك ومفاتن جسمك ليتمتع بها . . .
فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن عورتها ، فوقع عليها وتمتع
بمفاتن جسمها . . . ولبث انكيدو يضاجع البغي ستة أيام وسبع ليال ،
وبعد أن قضى وطره منها وأراد اللحاق بالقه من حيوان البرية انكرته
وهربت منه ، وخذلته رجلاه لما هم ان يطاردها ويلحق بها » . وهكذا
زالت القوة الوحشية عن « انكيدو » ولكنه أصبح « فطنا واسع الحس
والفهم » ، فرجع الى البغي وارتضى عند قدميها فقالت له : « أصبحت الآن
يا انكيدو عارفا حكيما مثل اله ، فعلام تجول مع الحيوان في البرية ؟ تعال
أقذك الى « اوروك » ، ذات الاسوار ، الى بيت آنو وعشتار ، حيث يعيش

جلجامش المكتمل القوة ، والمتسلط على الناس كالثور الوحشي ، * فأسلم
« انكيدو » قياده الى البني وقال لها : « هلمي أيتها البني ، خذيني الى
البيت المشرق ، مسكن أنو وعشتار ، الى حيث يحكم جليجامش
وسأتحداه وأنادي في وسط اوروك : أنا الاقوى ! أنا الذي سأبدل
المصائر ! » * وبينما كانت البني وانكيدو في طريقهما الى الوركاء ، رأى
جليجامش بعض الرؤى فقصها على أمه الالهة « نسون » الخيرة بتعبير
الرؤيا * ففي الحلم الاول رأى جليجامش « وهو سائر في دروب الوركاء
بين الابطال أحد كواكب السماء وقد سقط اليه ، فلم يستطع أن يحركه
ويرفعه ، وانحنى عليه كما ينحني على امرأة ، وبعد جهد جليبه الى
الالهة ، فجعلته نظيرا له * عبرت الالهة عن هذه الرؤيا ان معنى ذلك انه
سيحصل على صديق وصاحب أمين يلازمه * وفي الحلم الثاني رأى
جليجامش فأسا مطروحة وهي ذات شكل عجيب ، فأحبها وانحنى عليها
وجلبها الى أمه الالهة نسون فجعلتها نظيرا له ، وكان تعبيرها عن هذه
الرؤيا مثل الاولى أن جليجامش سيحصل على خل قوي يعينه عند الضيق *
وقبل أن يصل انكيدو والبني الى الوركاء شاهدا رجلا مقبلا من المدينة
يبدو أن أهلها أرسلوه ليبلغ « انكيدو » اضطهاد جليجامش لهم ويحرضوه
على قتاله ، فقد قال الرجل لانكيدو : « لقد أحل جليجامش في المدينة
العار والمنكرات وفرض على أهلها أعمال السخرة ... وانه يختار
العرائس قبل أزواجهن فيكون هو العريس الاول(*) » ، وهم يقولون عن
ذلك : « لقد أراد الآلهة هذا الامر وقدروه له منذ أن قطع جبل سرتة » *
وعندما اقترب « انكيدو » والبني من أبواب الوركاء تجمع الناس ليشاهدوا

القادم الغريب ، وصاروا يقارنون ما بينه وبين جلجامش + و « لما هبى »
الفراش للآلهة ، اشخارا(*) + اقرب جلجامش ليتصل بها في المساء فوقف
« انكيدو » في الدرب وسد الطريق بوجهه ، فنشب الصراع بين البطلين ،
« وخارا خوار ثورين وحشيين وحطما عمود الباب وارتج الجدار »
وحيثما انشئ جلجامش وقدمه ثاثة في الارض ليرقع « انكيدو » هددت
سورة غضبه ، واقر « انكيدو » بتفوق غريمه عليه ، واعجب البطلان
أحدهما بالآخر وصارا صديقين حميمين يلازم أحدهما الآخر +